اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الخامس

وترامت نحوى فهبيت أصيح : — إنه لمجنون من يحاول ولو مرة واحدة فى حياته أن يفوز بالحقيقة من فم امرأة . إنه ليعود بغنيمة الاحتقار وقد استحقها

إن من يتوصل إلى كشف حقيقة المرأة إنما هو المتنصّت إلى هذيانها فى نومها ، أو المستنطق خادمتها بقوة الرشوة . وما يعرف حقيقة المرأة إلاّ من استحال امرأة ليهتك بدناءتها الأشباح الملفعة بالظلام ؛ أما الرجل الذي يطلب هذه الحقيقة بكل صراحة وإخلاص ، الرجل الذى يمد يداً تأنف الدنايا مستجدياً هذه الحسنة الرائعة فإنه لن يظفر بها طوال حياته . إن المرأة تحترس من أمثال هذا الرجل فلا تجيب على سؤاله إلاّ بهز كتفيها ؛ وإذا ما خانه الجلد انتصبت فى وجهه كعذراء الهيكل غاضبة لعفافها وصيانتها . وهل تدافع المرأة إذا شعرت بالريبة تدور حولها بسوى آية النساء العظمى : إن في الشك مقتل الحب ، وما تغتفر المرأة إهانة لا يسعها أن تجيب عليها

أما والله لقد ثقل هذا الحال علىّ فإلى أى زمن سيدوم ؟

فقالت وقد تجمّدت نبراتها برودا على شفتيها :

— لك أن تضع له حداً فإنه ليرهقنى بقدر ما يرهقك

— سأضع له حداً فى هذه اللحظة فأنا هاجرك إلى الأبد ، وللزمان أن يفعل فعله ليبررك

الزمان ! الزمان ! هذه كلمة الوداع ، أيتها العاشقة الباردة ؟

تذكرى وداعك هذا عند ما يمرّ الزمان فتفتشين عبثاً عن السعادة والحب والجمال . أين فجيعتك لفقدى أيتها العاشقة ؟

إن كل ما يمر فى ذهنك الآن هو أن الحب الغيور سيدرك يوماً ما ارتكب من ظلم عند ما ينطح البرهان بصره فيعلم أى قلب أدمى ، وعندئذ تسح دموعه خجلاً من نفسه فيفقد لذة العيش ويهجره وَسَنُه وتصبح حياته مأتماً ينوح به على أيام كان له أن يقضيها فرحاً سعيداً ، ولكن لا يخطر لك أن معشوقة هذا التعس قد تقف مذعورة فى ذلك الحين من نتائج انتقام الزمان لها فتصرخ قائلة :

— ليتني فعلت ما كان يجب فعله قبل فوات الأوان

صدقينى ! إن كبرياء هذه العاشقة لن يأتيها بأية تعزية إذا كانت أحبت حقيقة

وكنت أود أن أتكلم هادئاً فأفلت زمامى من يدى ، وبدأت بدورى أذرع الغرفة طولاً وعرضاً . فتشتبك نظرات بريجيت بنظراتي اشتباك السيف

بالسيف ، وكنت أراها أمامى كأنها باب منيع سُجنت وراءه فأفتش عن وسيلة أبذل فى سبيل امتلاكها حياتى لأحطم أقفال فمها وأغتصب سرها

وقالت : ماذا تقصد وما الذى تريد أن أقوله لك ؟

— أريد أن تبوحى لى بما تضمرين . أفليس من القساوة أن تكرهينى على تكرار هذا القول ؟

— وأنت .. وأنت .. أين قساوتى من قساوتك ؟ تقول إن من يطمح إلى معرفة الحقيقة مجنون ، أفلا يحق لى أن أرد على هذا بقولى إنها لمجنونة المرأة التى يخيل لها أن ما ستعلنه من حقيقة سيصدق

إن السر الذى تريد معرفته هو أننى أحبك . ذلك هو سرى . فيالى من عاشقة أضاعت رشدها . إنك تفتش عما يكمن وراء شحوبى ، وشحوبى أنت ألقيت به على ثم عدت تتهمه وتستنطقه . يالي من مجنونة ! لقد أردت الانكماش على آلامى لأقف عليك صبرى واحتمالي . أردت ستر دموعى عنك فإذا أنت تتجسس عليها وتحسبها دلائل جرم خفي . يالى من مجنونة ! لقد أردت قطع البحار وهجر وطنى لأتبعك وأموت بعيدة عن كل من أحبنى منطرحة على قلب رتاب فى إخلاصى . يالى من مجنونة ! لقد كنت أحسب أن للحقيقة من النظرات والنبرات ما يمم عنها ويدعو إلى احترامها

أواه إن عبراتي تخنق أنفاسى عند ما أفكر فى حالى . لماذا اقتدتنى إلى هذا السبيل أخضع عليه حياتى إذا كنت ستقف بى هذا الموقف الحائر لا أهتدى فيه إلى نفسى ؟

وانحنت علىّ والدمع يتساقط من أجفانها وهى تصرخ: يالى من مجنونة !

وعادت إلى حديثها :

— إلى متى تستمر على هذا الضلال ؟ فقد أعجزتنى بشكوكك وهى لا تشب حتى تنطق ولا تنطق حتى تشب . أنت تطلب إلى أن أبرر نفسى ، ومن أية جناية يجب علىّ أن أبررها ؟ أمن هجر بلادى أم من غرامى أم من موتى أم من قطع رجائى ؟ إذا أنا تكلفت السرور حسبت سرورى اهانة لك . لقد ضحيت كل شيء لأرحل معك ، وما أنت سائر معى مرحلة دون أن تلتفت إلى الوراء . فأنا لا أتلقى غير الإهانة ولا أشهد غير الغضب أيان كنت ومهما فعلت

أى بنى الحبيب ! ليتك تعلم بأي صقيع قاتل أحس وأية أوجاع تقطع أحشائى عند ما أراك تقابل أصدق كلمة تصعد من قلبي إلى لسانى بالريبة فلا تصغى إليها إلا هازئاً ساخراً . إنك لتحرم نفسك السعادة التى لا سعادة سواها على الأرض وهي الاستسلام فى الحب . إنك لتقتل بما تفعل كل عاطفة رقيقة سامية فى قلب من يحبك ، ولن يطول بك الأمر حتى يمتنع عليك أن تؤمن إلا بكل خشن كثيف ، فلا يبقى لك من الحب إلا ما تراه بعينك وما تلمسه بيدك

أنت لم تزل فتياً يا أوكتاف ، وأمامك مراحل طويلة فى الحياة فستتخذ لك خليلات غيرى

لقد قلت حقاً ، ليست الكبرياء شيئاً معدوداً وما أتوقع منها تعزية وسلواناً ، ومع ذلك فإننى أطلب إلى الله أن يقدر عليك ذرف دمعة واحدة تتحدر يوماً كفارة عما أذرفه الآن من دموع

ووقفت وهى تقول أيضاً :

— أيجب على أن أعلن ، وعليك أن تعلم ، أننى منذ ستة أشهر لم أنطرح على وسادى ليلة دون أن أكرر قولى لنفسى : إنك لن تشفى من دائك ولا

حيلة لى فيك . أيجب أن تعلم أننى مانهضت يوماً فى صباحى دون أن أصمم على محاولة شفائك . وأنك ما قلت لى كلمة دون أن أشعر منها أن لا بد من هجرك ؛ وأنك ما ضممتنى مرة إلا وأعلن لى قلبى أنه يفضل الموت على الانسلاخ عنك ، وأننى فى كل يوم بل فى كل دقيقة حاولت وأنا كالأكرة بين أملى وخوفى أن أتغلب بحبى على أوجاعى أو أتغلب على حبى بهذه الأوجاع ؛ وأننى ما فتحت لك قلبى مرة دون أن تنفذ منه بنظراتك الساخرة إلى أعماق أحشائى ، فإذا أنا أوصدته دونك شعرت أنه ينطوى على كنز رصده القضاء عليك ولن يناله سواك ؟ أعلىّ أن أحدثك عن ضعفى وعن هذه الأسرار التى تتجلى نافهة لعين من لا يجد لها حرمة فى نفسه ؟ أأقول لك إنك فى كل مرة ذهبت من بين يدى غاضباً كنت أوصد بابى لأنفرد برسائلك الأولى أطالعها بدموعى ، وإن بين ما أعزفه قطعة تعرفها أنت مازلت أستقطر من نغماتها الصبر فى غيابك حتى تعود ؟

يا لشقائى ! إننى أعلم الآن ما ستكلفنى هذه الدموع التى ذرفتها فى الخفاء وهذا الجنون الذى يتدفق ضعفاً وحناناً . إننى لا أبكى لأن كل ما تحملت من عذاب لم يُجدِ شيئاً

وأردت مقاطعتها فصاحت : دعنى ، دعنى أقول لك مالا بد من إعلانه : لماذا ترتاب بى وأنا لك بكليتى منذ ستة أشهر وعليك وقفت فكرى وروحى وجسدى ؟ فما تكون يا ترى هذه الخيانة التى تجسر على اتهامى بها ؟

إذا كنت قررت السفر إلى سويسرا فها أنا ذى مستعدة للرحيل معك ، وإذا كنت تظن أن لك مزاحماً على فاستكتبنى الرسالة التى تريد وسلمها للبريد بيدك

ما لنا لا نعلم ما نفعل وإلى أين نتجه ؟

تعال نستقر على رأى فقد عشنا دائماً سوية فقل لى ما الذى يدعوك إلى هجرى ؟ إننى لا أطيق أن أكون ملتصقة بك وبعيدة عنك فى وقت واحد

قلتَ إن من حق الرجل أن يتمكن من الوثوق من خليلته وأنت مصيب ، ولكن إذا كان فى الحب خير للرجل فعليه أن يؤمن به ، وإذا أصابه منه ضير فمن واجبه أن يعتبره داء يعمل على شفاء نفسه منه

أفما ترى أن ما نفعله الآن إنما هو مجازفة فى ميسر ؟ وما نجازف إلا بقلبنا وحياتنا ، إن ذلك لأمر فظيع

مَنْ أنا لتصب على شكوكك ؟

وتوقفت أمام المرآة ، وهى تكرر قولها :

مَنْ أنا ؟ أنظر إلى ما أصبح وجهى عليه

وأردفت توجه الخطاب إلى خيالها :

— أإليك يوجه الارتياب أيتها المرأة التعسة ؟ أحولك تدور الشكوك أيها الوجه الشاحب ؟ أيتها الوجنتان الذابلتان ترويهما محرقات الدموع ، أكملى مراحل عذابك يا هذه ! وليأت الفم الذى جفف رواء جمالك بقبلاته لينطبق الآن على عينيك فيغمضهما

انزل إلى الحفرة الرطبة الباردة أيها الجسد الناحل وقد تراخت قوائمك عن حملك ، لعلهم يصدقونك وأنت ممدد فى اللحد إذا كانت الشكوك تؤمن بالموت

ويحك أيها الشبح الحزين إلى أى شاطئ من شواطئ العذاب تترامى معولاً باكياً ؛ أية نار تشب بين عظامك فتقف واضعاً خططاً لرحيل وأسفار وإحدى رجليك ناشبة فى ثلمة القبر

مُت أيها الشبح وليشهد الله أنك ما أردت إلا أن تجود بحبك . أية قوة من الوجد أثاروا فى

فؤادك وإلى أى حلم قذفوا بخيالك ليجرعوك أخيراً هذا الزعاف القاتل :

أية جناية ارتكبت حتى تهب هذه الحمى المحرقة فيك ؟ وأية ثورة تجتاح روح هذا العريد الذى يدفعك برجله إلى الحفرة ومن شفتيه تتدفق كلمات الغرام ؟

إذا أنت بقيت فى الحياة أيتها المرأة فإلى أين مصيرك ؟ ألم يحُن حينك ؟ أما كفاك الدهر عذاباً ؟

أى برهان يُطلب منك لتصديقك إذا كنت أنت البرهان الحى تُكذّبين فى شهادتك على نفسك . أبقى عذاب لم تقتحميه ؟ فأية تضحية تعدين لإطفاء أوار هذا الحب الذى لا يرتوى ؟

إنك ستصبحين أضحوكة تفتش عبثاً عن طريق مهجور تفزع إليه كيلا يشير الناس بأصابعهم مقهقهين ...

ستفقدين الحياء فتشعرين حتى عن مظهر هذه الفضيلة المتحطمة ولطالما عزت عليك من قبل . وسيكون الرجل الذى تلتحفين بالعار من أجله أول من يمد يده للاقتصاص منك ، فيزجرك لأنك وقفت الحياة عليه وتحدّيت المجتمع فى سبيله ، وعندما يتهامس أصدقاؤك حولك يتفرس فى ملامحهم ليرى ما إذا كانت الشفقة قد تجاوزت حدودها فى نظراتهم . انه ليتهمك بالخيانة إذا امتدت يد لتصافح يدك عند ما تعثرين فى صحراء حياتك على أحد يمكنه أن يمرّ بك فيشفق عليك

يا لله ! أتذكرين اليوم الذى وضع الناس فيه على رأسك إكليلاً من الورود البيضاء ؟ هذا هو الجبين نفسه الذى تزين ببياض تلك الورود ؟ فيا ليت هذه اليد التى علقت الإكليل على جدار المعبد قد تناثرت رماداً قبل سقوط وريقاته الذاوية

أى وادىّ الجميل ! أى عمتى المحنية تحت وقر السنين الراقدة الآن بسلام فى لحدها ! أى أشجار الزيزفون أشجارى ! أى جدىّ الأبيض الصغير ! أى ابن مزرعتى ، لقد أحببتمونى جميعاً فهلا ذكرتم الزمان الذى رأيتمونى فيه سعيدة فخورة محترمة ؟

أية قوة ألقت بهذا الغريب ليضلّنى سواء السبيل ؟ من أجاز له أن يمر على طريق قريتى ؟ ويلٌ لك أيتها المرأة ، لماذا تلفت وراءك لأول مرة اقتفى أثرك ؟ لماذا رحبت به كأخ ؟ لماذا فتحت له بابك ومددت له يدك ؟

أى أوكتاف ! لماذا أحببتنى إذا كان هذا هو مصيرك ومصيرى ؟

وتداعت إلى الحضيض فهرعت إليها أسندها بذراعى وحملتها إلى مقعد ارتمت عليه ملقية رأسها على كتفى وقد حطمها مابذلت من جهد وهى تتدفق ببيانها الرائع المرير

وتوارت عن عيانى الخليلة المهانة فاذا بى لا أرى مكانها غير طفلة تئن من آلامها ...

وأطبقت جفنيها فطوقتها بذراعى وقد سكنت بينهما لاتهى

ولما ثاب إليها رشدها شكت الضعف ورجتنى بصوت ضعيف حنون أن أتركها لتذهب إلى مرقدها وتهادت فى مشيتها فرفعتها على ذراعى وألقيتها على مهل فوق الفراش وما بقى على وجهها شئ ينمّ عن الألم بل رأيتها تتجرد من آلامها وتنساها كمن يرتاح من جهد جسدى أضناه . ذلك لأن طبيعتها الضعيفة الرقيقة أرهقها العراك فاستسلمت بعد أن ذهبت بها إلى أبعد ماتحتمل قواها وبقيت رابطة أناملها على يدى وأنا مكبّ

على وجهها أقبله وإذا بشفاهنا ولمّا تزل ثملة بغرامها تتلاقى فيلتصق فمها بفمى دون أن نشعر وما عتم حتى استغرقت فى الوسن بعد هذه المصادمة العنيفة وهى تتوسد صدرى مفترة الثغر كأننا فى الليلة الأولى من لياليا

الفصل السادس

وكانت بريجيت نائمة وأنا جالس أمام سريرها صامتاً جامدا كفلاح اجتاحت العاصفة حقله فحطمت سنابله

وذهبت أسبر أعماق نفسى متلمساً ماجنت ، وما كدت أستعرض بعض أعمالى حتى رأيتنى تجاه مآت لا سبيل لتلافى نتائجها

إن من الآلام ما تستنفد طاقة الحس فتشعرك بشدتها أنها بلغت حدها ، وبمثل هذه الآلام كنت أتوغل فى خجلى وتبكيت ضميرى فأرى أن لا بد لى من توديع بريجيت بعد هذا العراك العنيف ، وبعد أن كرعت حتى الثمالة كأس غرامها الحزين ، وقد توجب على أن أطلق سراحها من هذه الأوصاب إذا كنت لا أتعمد قتلها

وما كانت هذه المرة الأولى التى تلجأ فيها بريجيت إلى تأنيبى ، ولكم وجهت إلىّ جارح الكلام فى ثورة غضبها ، ولكن ما قالت فى عراكنا الأخير لم يكن صادراً عن كبرياء جريحة بل كان بياناً عن حقائق تمخض بها القلب طويلا فما انبثقت منه حتى مزقته تمزيقاً ، وقد رأيت كل ما يحوط بنا من أحوال وما أبديته من رفضى الرحيل معها يمنع تسرب أى أمل إلىّ

فتيقنت أن بريجيت لن تقوى على إنالتى عفوها حتى ولو غالبت نفسها واستفزتها إليه ، وما كان هذا الوسن العميق الذى سادها كأنه نوع من الموت لجأت إليه طبيعتها لتجاوز الألم حدوده فيها إلا برهاناً على صدق يأسى من عودتها إلىّ ، فان سكوتها فجأة بعد هذا التدفق فى بيانها وهذه العذوبة التى تجلت على ملامحها عند ثواب رشدها ورجوعها إلى الحياة حزينة مروّعة ، وحتى هذه القبلة التى رنت كصدى لقبلتى ، كل هذا كان يؤذن بأن الدهر قد سكن بيننا وأن حبل وصلنا قد انبتّ إلى الأبد بين يدى

وكنت أتفرّس فيها وهى ممددة فى وسن العياء المرهق فأتيقن بأننى إذا عدت إلى ما سبّب هذه النيبوبة بعد أن تفيق منها سأدفع بها إلى الرقدة التى لا انتباهة بعدها ، وسمعت الساعة تدق فى سكون الليل فشعرت بأن الساعة المنقضية تتوارى طاوية معها حياتى

وما أردت أن أستنجد بأحد فأوقدت المصباح الصغير وشخصت إلى إشعاعه الضئيل يذهب بدداً في الظلمة كذهاب خطرات أفكارى التائهة الحائرة

وما كنت فكرت حتى اليوم فى إمكان فقد بريجيت بالرغم من أننى صممت مائة مرة على هجرها ، ويعلم كل من ابتلى بالعشق قيمة مثل هذا العزم فى ساعات اليأس أو فى دقائق الغضب ، وما ينقطع الحب عن الوله بمعشوقته مادام واثقاً من حبها له . وهكذا كنت أنا ، ولكننى لأول مرة شعرت بأن قضاء لا يرد ينتصب مفرقاً بينها وبينى ، فانهدت قواى وأحنيت الرأس قرب سريرها وقد أدركت مدى شقوتى ، ولكن شعورى المتخدر لم يكن يقيس مدى آلامها فان روحى كانت تتراجع مرتاعة أمام ما يقتحمه تفكيرى

وقلت فى نفسى : هذا ما أردته أنا لك فقد انقطع كل رجاء فى بقائك مع من تحب . أنا لا أريد قتل

هذه المرأة فلا مناص لى إذن من هجرها ، وذلك ما صممت عليه وسأحققه غداً

وذهبت فى تفكيرى على هذا النمط دون أن أحاكم نفسى على ماجنت ودون أن ألتفت إلى ماورائى وإلى ما أمامى ، فنسيت سميث وما وقع من حوادث . وما كنت لأتميز السبب الذى قادنى إلى هذا الموقف وانحصر كل همى فى التفكير لأعلم بأية عربة سأغادر المدينة فى الصباح

ومر علىّ زمن طويل وأنا على هذا السكون الغريب ، فكنت كرجل أصيب بطعنة خنجر فلا يحس أولاً بغير صقيع النصل حتى إذا سار بضع خطوات فى طريقه يقف مندهشاً وقد زاغت عيناه فيتساءل عما ألم به ، وينفتح جرحه دافقاً على مهل أوائل قطرات دمه ، فلا يلبث أن يرى الأرض تخضب بالأحمر القانى وملاك الموت يقبض عليه فيهزه الروع فجأة ويسقط مصعوقاً على الحضيض

وكنت كمثل هذا الجريح ساكناً والداهية الدهماء تحدجنى بأنظارها وتتقدم إلىّ

وبدأت أردد بصوت خافت الخطاب الذى وجهته بريجيت إلىّ وأنا أدور فى الغرفة معدّاً ما كانت الوصيفة تمده لها فكنت أتفرس فى وجهها ثم أذهب لألصق جبينى على زجاج النافذة ناظراً إلى وجه السماء المتجهم بالغيوم

وانحصر تفكيرى فى كلمة واحدة « الرحيل غداً » وما طال بى الأمر حتى امتنع علىّ أن أفهم معنى هذه الكلمة ، وانتفضت فجأة وأنا أهتف قائلاً : يا لله ! أى خليلتى التعسة إننى أفقدك لأننى ماعرفت أن أحبك

وارتعشت أعضائى كأن شخصاً مجهولاً يصيح بهذه الكلمات فى أذنى فذهبت فى كل جارحة منى ذهاب الريح على قيثارة تهز أوتارها المشدودة لتقطعها

وأحسست بآلام سنتين تخترق فؤادي فى لحظة وعلى أثرها تقبض عليه أوصاب الحاضر وليدة ذلك الماضى المشئوم ، وما أجد فى البيان ما أصف به مثل هذه الأوجاع ، ولعل وصفها بكل جلاء لايحتاج إلا لكلمة واحدة ، ولكن هذه الكلمة لا يفهمها إلا من ابتلاهم الحب بأدوائه

وكانت بريجيت مستغرقة فى نومها وأنا مطبق أناملى على يدها فإذا هى تتلفظ باسمي فى بحرانها

نهضت أتمشى فى الغرفة والدموع تنهمر من عينى فمددت ذراعى كأنني أحاول القبض على الزمان الماضى وقد أفلت منى وأنى له أن يعود ؟ وصرخت : أيمكن هذا ؟ أحق أننى أفقدك وقد امتنع علىّ أن أحب سواك ؟ أحق أنك موليـة إلى الأبد ؟ أنت حياتى ، خليلتى أتهربين منى فلن أراك بعد ؟

واتجهت إلى بريجيت أخاطبها كأنها تسمعنى فأقول لها : لا .. إننى لن أرضى بهذا القضاء ، أى معنى لهذه الكبرياء ؟ أفليس من وسيلة أبذلها للتكفير عن إهانتي لك ؟ ساعديني على وجود هذه الوسيلة ، أفما غفرت لى ألف مرة من قبل ؟ إنك تحبيننى وسوف تخونك قواك إذا أنت أقدمت على جناية هجرى ، لأنك لا تعلمين ولا أعلم أنا ما ستفعل وما سيحل بنا إذا افترقنا

واستولى علىّ الجنون المطبق المخوف فبدأت أذهب وأجىء رافعاً صوتى بما أقول دون هدى مفتشاً هنا وهنالك عن آلة جارحة قاتلة حتى ارتميت جاثياً أمام السرير أضرب بحافته جبينى ، وتحركت بريجيت فتوقفت مذعوراً

وقلت فى نفسى : إذا هى أفاقت من نومها الآن فما أنت فاعل أيهـا المجنون ؟ دعها فى نومها إلى

الصباح فما لك إلا هذه الليلة لتراها

وعدت إلى مقعدى وقد كتم الخوف أنفاسى وخيل لي أن دمى قد تجمد في عروقى مع انجماد دموعى فلبثت دون حراك يهزنى البرد هزاً فأقول لنفسى لأحتفظ بسكونى : أنظر إليها ! تفرس بها فان ينسنى لك أن تراها بعد الآن .

وملكت أعصابى أخيراً فتناثرت دموع الأسى بطيئة على خدى . وتولت سورة الغضب فإذا مكانها سكينة الاشفاق فأسمعنى وهى صرخة إعوال وأنين تشق الفضاء ، فانحنيت على السرير أحدق فى بريجيت كأن ملاكي الصالح يهيب بي لأول مرة إلى استطباع ملامحها العزيزة على صفحات فؤادى

ها هى ذى أمامى فيا لشدة شحوبها وقد أحاطت بأهدابها الطويلة هالة زرقاء ! ولما يزل رشاش الدمع عالقاً بأطرافها وهذه قامتها الممشوقة منطرحة على الفراش وقد تقوّست كأنها حتى في رقادها تنوء تحت وقر ثقيل ، وهذا خدها الأسيل تمده صفرة دكناء وقد لاقته على الوسادة كفها الصغيرة ومعصمها النحيل ، وهذا جبينها وقد ارتسمت عليه آثار إكليل الأشواق تاج المتألمين الصابرين

وإذا بى وأنا مستغرق فى تأملى أرى أمامى ذلك الكوخ حيث التقيت بها منذ ستة أشهر صبية مرحة تتمتع بالحرية ولا تبالى بشيء

ويلى ! ما الذي فعلته بذاك الصبا وتلك الخلال؟

وعادت الأغنية القديمة المنسية تتردد على مسمعى :

كنت فى روض دلالى زهرة فيها ضرامْ
أحرق العشق جمالى هكذا يقضى الغرام

بهذا كانت تتغنى خليلتى الأولى ، وما كنت من قبل لأدرك معنى هذا الشعر الساذج كما أدركه الآن ، فبدأت أترنم به كمن يحفظ ألفاظاً تنجلى له معانيها فجأة . إنها أمامى الآن هذه الزهرة المضطرمة تتساقط رماداً وقد أحرقها غرامها

وأجهشت بالبكاء قائلاً لنفسى : أنظر إليها يا هذا وفكر فى شكوى من لهم أجسام الخليلات وليس لهم غرامهن . إن خليلتك مولهّة بك وقد استسلمت لك وها أنت ذا تفقدها لأنك ما عرفت كيف تهواها

وتجاوزت أوجاعى حدود احتمالى فنهضت لأرجع إلى ذرع الغرفة بخطواتى قائلا :

— أجل ، أنظر إليها يا هذا وتذكر من يقضى عليهم الملال فيذهبون فى الأرض مسرحين أوجاعاً لا يشاطرهم إياها أحد . أما أنت فقد كان لك من يقاسمك آلامك فما انفردت بشيء مما احتملت . تذكر من يسيرون في الحياة ولا أم لهم ولا قريب ولا صديق حتى ولا كلب لهم يؤنسهم ، تذكر من يفتشون ولا يجدون ومن يبكون فيسخر بهم الناس ومن يحبون فيُكرهون ومن يموتون فلا يذكرهم أحد

أما أنت فأمامك على هذا السرير مخلوقة قد تكون الطبيعة أعدتها لاستكمالك ، فهيأت روحها فى دوائر الفكر الخفية أختاً لروحك ، وجسدها في أعمق أسرار المادة أختاً لجسدك ؛ وقد مضت عليك ستة أشهر لم ينطق فمك بكلمة ولم يخفق قلبك بنبضة دون أن تجاوبك كلمة من ثغرها ونبضة من فؤادها . غير أن هذه المرأة التى أنزلها الله عليك كإنزاله الندى على الأزهار لم تستقر حتى انزلقت عن تويج قلبك الهاوى . لقد جاءتك هذه المخلوقة فاتحة لك ذراعيها لتهبك حياتها أمام وجه السماء فإذا هى تتبدد كأنها طيف لن يتبقى بعد زواله حتى خيال خياله !

لقد التصقت شفاهكما وطوقت ذراعاك عنقها وضمتكما ملائكة الحب الخالد فأصبحتما كائناً واحداً

برابطة الدم وجامع الشهوة ، ولكنكما حتى فى ساعات هذا العناق الموحد كنتما منفصلين يبتعد أحدكما عن الآخر ابتعاد منفيين بينهما مابين مشرق الشمس ومغربها

أنظر إليها يا هذا ولكن احترس من إبداء أية حركة ، لم يبق لك إلا هذه الليلة لتراها فاختنق إعوالك كيلا تنبهها من رقادها

وساورتنى أفكار مظلمة بدأت تحتل دماغى على مهل فشعرت بقوة مخيفة تدفعنى إلى سبر الأعماق فى نفسى

أفيكون قضاء العناية فىّ أن أرتكب الشر فى حين أن ضميرى يشعرنى حتى فى غمرات جنونى أننى صالح ومحب للخير ؟

أأرتكب الشر كأن ورائى قوة لاتنى تدفعنى إلى الأغوار فى حين أشعر بقوة أخرى تحذرنى من الانزلاق على مهاويها ؟

لماذا أرتكب الشر وفىّ صوت يهتف مستنكراً مآتى ؛ حتى ولو تلطخت يداى بدماء الجريمة أسمع صرخة من أعماق فؤادى تعلن لى أننى لست مجرماً وأن الفاعل ليس ذاتى بل هو شخص آخر كامن فىّ ولم ينبثق منى ، هو الروح الشرير المنفذ لما قُضىَ علىّ

لقد مرت بى ستة أشهر وأنا أذهب على سبيل الأذية فما اجترت يوماً دون أن أعمل على الإضرار كافراً بنفسى ونصب عينى نتائج فعلتى

فهل الرجل الذى أحب بريجيت ليحقرها ويقسو عليها فهجرها تارة ليعود إليها تارة أخرى مالئاً روحها ارتياعاً دائراً حولها بالشكوك ليطرحها أخيراً على فراش الضنى ، كان رجلا آخر سواى ؟

وضربت بكفى على موضع قلبى ناظراً إليها ممددة أمامى فكذبا عينىّ فيما أرى ومددت يدى متلمساً جسدها لأتحقق أننى لست فى حلم وأن هذا الجسد ليس خيالا

ولمحت وجهى فى المرآة فاذا به يحدق فى مستغرباً كأنه يستنكر هذا الإنسان الذى تتجلى ملامحى فى ملامحه

من هو هذا الماثل الذى يحدق فى فمى ويتخذ يدىّ آلة للتعذيب ؟

أهذا الرجل هو من كانت تدعوه أمى باسم أوكتاف ؟ أهذا هو من كان يتراءى لى بين مروج الغاب عند ما كنت أنحنى وأنا فى الخامسة عشرة من ربيع حياتى فوق جداوله وهى تنساب كاللجين صافية كصفاء فؤادى ؟

وأطبقت جفونى عائداً إلى أيام طفولتى فإذا التذكار يخترق قلبى بألف شعاع كأن الشمس تمزق خيوطها حالكات الغيوم

وصحت : لا . إن من ارتكب هذا الاثم ليس أنا وليس كل ما يتراءى لى فى هذه الغرفة سوى أضغاث أحلام

وعدت أستعرض تفتح قلبى للحياة فيلوح لى على صفحات تذكارى متسول هرم كان يجلس أمام باب المزرعة وكنت أحمل إليه بعد الغداء فضلات مائدتنا ، فأراه كأنه الآن أمامى مقوس الظهر مادّاً يديه الناحلتين ليباركنى وهو يبتسم

وشعرت بغتة بهبوب نسمات الفجر على صدغىّ وبتساقط قطرات كأنها أنداء الصباح على روحى

فتحت عينى فاذا الحقيقة تنطح بصرى وقد أنارها اشعاع المصباح الضئيل

وعدت أخاطب نفسى قائلاً :

أتعتقد أنك برىء من الاثم يا هذا ؟ أتحسب

نفسك بريئاً لأنك تبكى ؟ أيها المتلذذ للحياة منذ أمس وقد أفسدته الحياة ، إن ما تراه فى تقديرك شهادة من ضميرك لك قد لا يكون إلا ندماً وتبكيتاً وأى قاتل لا يبكته ضميره ؟

أفأنت واثق من أن صراخ الألم المتعالى من صميم فضيلتك ليس آخر حشرجة تدفع بها فى احتقارها ؟

أيها الشقى ، لا تحسبن هذا الصخب المتعالى من أعماق فؤادك أنيناً وإعوالا ، فقد لا يكون ما تسمعه إلا صرخة الطيور الجوارح تنبئها العواصف بتحطم سفينة بين ثائرات الأمواج

من أخبرك بما كانت عليه طفولة من يموتون مخضبين بالدماء ؟ أفما كان لهؤلاء أيضاً أيام بر وصلاح؟ إنهم يمرون مثلك أيديهم على جباههم ليتذكروها

لقد ارتكبت الشر وما تندم على ما فعلت أفما أحرقت الندامة قلب نيرون بعد أن قتل أمه ؟

من قال لك يا ترى إن الدموع تغسل الآثام ؟ وهب أن الدموع تطهر وأن قسما من روحك لن يستسلم للشر أبداً ، فما حيلتك بالقسم الآخر الذى استغرق فيه ؟ إنك ستتلمس بيسراك الجراح التى فتحتها يمناك وستنسج من فضيلتك كفناً تدرج فيه جرائمك . إنك لتفعل ما فعله بريتوس عندما أرسل طعنته النجلاء وعاد ينقش على نصله ما تشدق به أفلاطون

وإذا سافتح أحدٌ لك ذراعيه فانك لترسل إلى أعماق قلبه مثل هذا النصل وقد نُقشت آيات النوم عليه ، وهكذا ستقود إلى المدافن بقايا عواطفك وتنثر فوقها أزهار إشفاقك العقيم هاتفاً بمن يشهدون ما تفعل : « ماحيلتى ؟ لقد علمنى الناس القتل فلا يعزب عنكم أننى أذرف الدمع لما قُضى علىّ لأن الله قد خلقنى أفضل منى الآن »

وتذهب مورداً الأحاديث عن أيام صباك فتقنع نفسك بأن على الله أن يغفر لك وانك مُكرهٌ غير مختار فى شقائك ، ثم تتحول إلى الأرق فى لياليك فتناجيه بمثل ماتناجى به نفسك كيلا يسلبك راحتك حتى الصباح

ولكن من يدرى ! إنك لازال فى مقتبل العمر ولسوف تستسلم لقلبك فتغلك كبرياؤك . ها أنت ذا الآن أمام أول طلل من آثار الدمار التى ستبقيها حيث تمر . وإذا ما ماتت بريجيت غداً فإنك ترسل دموعك على نعشها لتذهب بعد ذلك سائحاً فى الأرض ، ولعلك تتوجه إلى إيطاليا فتلتف بردائك كانكليزى أصيب بداء الملال واليأس من الحياة إلى أن تصبح يوماً فى أحد الفنادق وأنت تحتسى كأساً بعد كأس فتقول لقد سكت صوت ضميرى وحان زمن السلوان فلأرجعن إلى الحياة

إنك تأخرت كثيراً حتى ذرفت الدمع يا هذا فكن على حذر ! سيأتيك يوم تنقطع عن البكاء فيه

من يدرى ! لقد يدور بك من الناس من يهزأون بالأوجاع التى تتوهم الشعور بها ؟ وتمرّ بك امرأة قيل لها إنك تبكى خليلة خطفها الموت فترسل إليك بسمة الإشفاق فتستنبت فجيعتك ما يغذى غرورك

أفما يكون بوسعك فى ليلة من الليالى عندما يصبح ما ترتعش له الآن ومالا تجسر على التحديق فيه صفحة مطوية فى ماضى الزمان أن تتراخى على مقعدك أمام مائدة أنس وطرب لتقصّ على رفاقك فحشاءك والابتسام على شفتيك ما رأته عيناك وهما دامعتان

هكذا يكرع الناس كؤوس العار وذلك هو سبيل الحياة . لقد كنت حالماً بالأمس فغدوت ضعيفاً وهذا الضعف سيقودك إلى الشر غداً .

(تتمة الكتاب فى العدد القادم) فليكس فارس